طوائف الحرفيين ودورهم في المجتمع (تلمسان نموذج)

أ. نبيلة رزقي
قسم علم الاثار(جامعة تلمسان)

الملخص با اللغة الفرنسية:

Les industries traditionnelles de secteurs économiques importants comme le revenu pour un grand nombre de segments de source de la société arabe، il offre de nombreuses possibilités de travailler et travaille à soutenir et à stabiliser la situation sociale d'un artisan ، il est un héritier de la civilisation doit être protégé contre la perte et de soutenir son développement en ligne avec le rapide dans tous les domaines des développements ، nous essayons de mettre en évidence la longue histoire de l'artisanat traditionnel dans l'histoire humaine et mettant en évidence le rôle social en reliant les liens de solidarité entre les individus et les régions les unes aux autres et et le développement disponibilité au bien-être de la société.

تمهيد:

لقد رافقت الحرف الانسان مند ضهوره على وجه الارض ففي فترات ما قبل التاريخ فكر هدا الاخير في كيفية تدبير معاشه، كما قام بتوفير مأوى يقيه من قساوة الطبيعة ويحميه من الحيوانات المفترسة التي تهدد بقاءه، فكانت حرفة البناء من الحرف التي مارسها الانسان،كما فكر في قوته فامتهن الزراعة وتمكن من صنع ادوات الحرت ومن ابرز ما برع فيه صناعة الفخار التي توصل اليها قبل تعرفه على الكتابة مند عهود سحيقة، حيت شكل منه اواني متعددة الاشكال مختلفة الاحجام لتلبية حاجاته اليومية،ليس هدا وفقط وانما نجد ه قد ابدع وتفنن في تشكيل تماثيل تغدي اعتقها.

لقد اهتم الانسان مند فترات ما قبل التاريخ با الممارسات الحرفية التي يسرت عليه حياته اليومية ودلك قبل توصله الى الكتابة وازداد اهتمامه بها عبر الفترات التاريخية اللاحقة، سنحاول من خلال هده المقالة ابراز عراقة النشاط الحرفي وأهم انعكاساته على الفرد والمجتمع كما سنحاول الاجابة على الاشكالية التالية :كيف ساهمت الطوائف الحرفية في نهضة المجتمعات وارتقائها. وللإجابة على الاشكالية سنسلط الضوء على واقع الحرفيين في عاصمة الزيانيين(تلمسان كنموذج).

1-نبدة تاريخية عن الممارسات الحرفية :

في ظل الحضارة الفرعونية ادرك المصريون بفطرتهم معنى الحرفة اذ ارتبطت صناعة التماثيل بحياة ما بعد الموت ،حيت عتر في كتير من المقابر على نماذج مصغرة لقرين المتوفي ، كما ظهرت بعد الصناعات الدقيقة التي تدل على النمو الحرفي في سقارة متل قطع الآتات والقطع المعدنية المرصعة با العاج مما ينم عن تطور المهارة ورقي الذوق ويضاف الى دلك المجوهرات التي وجدت في قبر الملك زوسر[1]، كما ضمت المعابد والقصور في العصور الفرعونية ورش عمل للحرفيين وقد احيطت فئة الحرفيين وعائلاتهم بمكانة خاصة في المجتمع الفرعوني اذ خصصت لهم اماكن خاصة للسكن وممارسة الحرفة.

ومن بين الحضارات التي داع صيتها في امتهان الحرف ،الحضارة الفينيقية اذ برز الفينيقيين وتميزوا بصناعة الزجاج والفخار والاصباغ والنسيج ولسفن، فازدهرت على طول الساحل ا للبناني و تطورت و استمرت خلال الحقب التاريخية المتتالية.

أما عن الحضارة الاسلامية التي يعتبر فيها العمل ركيزة الحياة ،اذ حت الرسول (ص) كل مسلم على تعلم حرفة او مهنة وفي دلك يقول(ص)"لان يحتطب احدكم حزمة على ظهره خير من ان يسال الناس اعطوه او منعوه" كماينهي الرسول(ص) على التسول والبطالة حيت يقول (ص) في ذلك:"اطيب الكسب عمل الرجل بيده وكل بيع مبرر "

كما حرصت الشريعة الالاهية على ابراز العمل و الحرفة كصفات للمؤمنين، بل سمات من هم اكمل منهم من الانبياء و المرسلين[2] وقد ورد في حديث الرسول (ص) ذكر بعد الحرف التي امتهنها الانبياء فقال في ذلك: "وكان زكريا نجارا وكان ادم حراتا

ونوح نجارا وادريس خياطا و ابراهيم ولوط زارعين وصالح تاجرا وداوود زرادا(صانعا).

استمر الاهتمام بالحرف كإحدى ادوات الكسب الشريف في عهد الخلفاء الراشدين كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه "تعلموا المهنة فانه يوشك احدكم ان يحتاج الى مهنة " وكان رضي الله عنه اذ رأى غلاما فاعجبه قال: هل له حرفة ،فان قيل لا قال: سقط من عيني[3].

2-مشاركة الحرفيين في نهضة المجتمعات:

لقد تعرض ابن خلدون الى قيام المدن وعمرانها ،بوصفها من اهم الاجراءات لتحقيق النهضة والتقدم موضحا كيف تأدي زيادة السكان الى تقسيم العمل وتقسيم العمل يأدي إلى زيادة الانتاج وزيادة الانتاج تأدي الى زيادة السكان مرة اخرى ،بحيث حدت تقسيم العمل من جديد ،يعقبه زيادة في الانتاج وهكذا يكتر العمران وتتحقق التنمية يقول ابن خلدون: «تبت ان الواحد من البشر غير مستقل بتحصيل حاجاته في معاشه وأنهم متعاونون جميعا في عمرانهم على ذلك و الحاجة التي تحصل بتعاون طائفة منهم تسد ضرورة الأكثر من عددهم اضعافا،فاذا توزعوا على تلك الاعمال او اجتمعوا وحصل بعملهم ذلك مقدار من القوت ،فانه حينئذ قوت لأضعافهم مرات وقد تبين ان المكاسب إنما هي قيم الاعمال ،فادا كثرت الاعمال كثرت قيمها بينهم،فكترت مكاسبهم ضرورة ودعتهم احوال الرفه والغنى الى الترف وحاجاته من التألق في المساكن والملابس واستجادة الانية والماعون واتخاد الخدم والمركب وهده كلها تستدعي بقيمها ويختار المهرة في صناعتها والقيام عليها ،فتنفق الاعمال والصنائع ويكتر دخل المصرو خروجه ومتى زاد العمران زادت الاعمال تانية ،تم زاد الترف تبعا للكسب وزادت عوائده وحاجاته واستبطت الصنائع لتحصلها فزادت قيمها وتضاعف الكسب في المدينة لدلك تانية ونفقت سوق الاعمال بها اكتر من الاول[4].

إذا فالعمران لا يرقى الا بوجود الصنائع المتمثلة في الفلاحة والصناعة والتجارة فعليها جميعا يتوقف تراء المجتمع ورفاهيته وكلما ارتقت الصناعات

وراجت التجارة، عم الرخاء وانتعش الاقتصاد ،ولكل هدا اتره في رفاهية المجتمع البشري ورقيه وبلوغه مراحل الترف.

3- النشاط الحرفي في الدولة الزيانية:

لقد عرفت الدولة الزيانية تنضيم النشاط الحرفي اد اتخدت بعد الحرف اماكن خاصة بها مازالت الذاكرة الجماعية تحتفظ بأسماء ألاماكن مكنات با الحرف منها الصبانين الصباغين مقرات الخرازين البلاغجية الحدادين السراجين بدرب سيدي حامد و هناك حرف لاتتطلب مقرات مثل حرفة البناء،على غرار حرفتي الدباغة وصناعة البناء حين إن خروجها من داخل المدينة كان بسبب الإزعاج الناتج عن الروائح الكريهة والدخان [5]، أما الدباغة فوجدت بكثرة بتلمسان ومادامت دور الدباغة تخضع إلى اعتبارات مناخية (الرياح الغربية) لزم وجودها بالجهة الشرقية،من المنطقة اقادير ما بعد باب القرمدين مقر الصناعات (القرميد و الأجر)،كان معظم الصناع في العباد من الصباغين.

كما ازدهرت الحرف في المناطق المجاورة ،إذ كانت تعتمد على المواد الأولية وفي مقدمتها صناعة الأقمشة والمنسوجات القطنية والكتابية والصوفية والحريرية، يذكر الوزان أن ندرومة التابعة لمملكة تلمسان مزدهرة لكثرة الصناع فيها،ينتجون على الخصوص أقمشة القطن .لأنه يزرع بكثرة في الناحية[6] ، أما سكان هينين ، قبل نزوحهم عن المدينة اثر احتلال الأسبان لمدينة وهران 1504 كانوا يعملون كلهم تقريبا في القطن والمنسوجات.

كانت صناعة الحديد من بين الصناعات الهامة لوفرة المواد الأولية في محيط الدولة الزيانية فقد استخدمت في كثير من الصناعات مثل صناعة الأسلحة التي شملت السيوف وغيرها من أدوات القتال كما صنعت من الحديد أبواب المدينة وتحصيناتها واستخدمت منه الأدوات البسيطة كا السكاكين ومقابض الأبواب والفؤوس والمحاريث وغيرها ومن بين المدن التي كان سكانها يشتغلون بها مدينة تفسره التي قال عنها الوزان تقع على نحو خمسة عشر ميلا من تلمسان فيها حدادون كنيرون أهلها لا يشتغلون بغير خدمة الحديد و نقله الى تلمسان[7] التي أصبحت مركزا صناعيا با الدولة الزيانية.

4- الإنتاج الحرفي المنزلي:

يختص بهذه العملية العنصر النسوي داخل المنازل ويقال كما عن المراة العاملة في هذا الميدان كل صبع بصنعة ،كما كانت المراة تتباهى بتعليم بناتها الحرف المتداولة من بينها صناعة الزرابي والطرز بخيط الذهب والفضة وعزل الصوف العزل من اختصاص في الطبقة الفقيرة بعدم الحاجة الى الوسائل المكلفة ص213 قال عنها ابن سعيد: تلمسان قاعدة بن عبد ألواد ومنها تحمل نبات الصوف المفضلة على جنسها المصنوع في السائر المغرب وتحمل منها الجم الخيل والسروج وما تبغ ذلك[8] .

يقول أيضا ياقوت الحموي: يكون بتلمسان الخيل الراشدية لها فضل على سائر الخيل، وتتخد النساء بها من الصوف أنواعا من الكنابيش لاتوجد في غيرها[9].

5- اسهام الحرفيين بربط حواضر المنطقة الغربية ببواديها:

لقد ارتبطت البوادي بالمدن ارتباطا متينا، إذ تشكل الارياف مصدرا للمادة الاولية ولليد العاملة في بعض الاحيان، أما المدن فهي بمثابة الاسواق، إذ زاول سكان المناطق الجبلية النشاط الحر في زيادة على صناعة الفحم الدي كان ينقل الى المدن ومن بين هؤلاء سكان مطغرة الذين كانوا يجلبون الفحم من جبلهم الى هنين وندرومة و تلمسان[10].

كما يضاف الى بني راشد منطقة ندرومة القريبة من مركز الدولة ،التي كانت تتوفر على المواد الاولية المتمثلة في القطن الذي يزرع بضواحي المدينة والاصواف لغناء جبالها بتربية المواشي، مما جعل المؤلف والرحالة "الوزان" يعلق على سكانها بقوله"ندرومة اليوم مزدهرة لكثرة الصناع الذين ينتجون على الخصوص اقمشة القطن[11]..

استقر عدد كبير من المهجرين الاندلسيين با المدن الجزائرية وخاصة الساحلية منها، من ابرز هده المراكز با الغرب الجزائري وهران و نواحيها ومستغانم وأرزيو وتلمسان وقلعة بني راشد ما زونة،ندرومة، كما استقرت هده الجاليات ايضا با الشرق الجزائري، في كل من بجاية وجيجل والقل وقسنطينة وبونة.

استغل الاندلسيون في الاعمال الزراعية والتجارية والحرفية وتفوقوا في الصناعات التقليدية وأهم ما برعوا فيه النسيج (قطن وحرير وكتان)التطريز الشاشية وصناعة الحلي والاسلحة ،فقد شكل الاندلسيون رغم اختلاف عاداتهم وبيئتهم التي غادروها أساس اقتصاد مدينة الجزائر بما جلبوه معهم من موطنهم الاصلي الاندلس من مهارات حرفية وتجارية فقد ضلوا شريحة اجتماعية متماسكة لها مكانتها الخاصة لدى الحكام وتعامل خاص مع التجار الأوربيين والمتعاملين اليهود الدين قدموا من الاندلس او المدن الايطالية.

ابتداءا من سنة 1391 شهدت المنطقة نزوح اليهود الفارين اللاجئين وأضحت الهجرة اليهودية نحو بلاد المغرب اكتر كثافة عقب سقوط غرناطة فكانت الهجرة الاسبانية عام 1492م وتلتها اخرى برتغالية عام1496م[12]..

فبالرغم من اختلاف الديانات إلا أننا نلمس ذلك التعايش، إذ تمتع اليهود في الجزائر باستقلال تام في المجال الديني و الاجتماعي و الثقافي، تحدث مرمول عن الحرف التي كان اليهود يمارسونها بقلعة بني راشد فيذكر "بلغ نحو أربعين دار للصناع ومن بين هؤلاء الصناع أفراد الجالية اليهودية كانوا يصنعون الصابون والمنسوجات والسروج وحاجيات الخيول وأغلب مصنوعاتهم تصدر الى سوق ام عسكر" إذ يبرز تمركزهم با المنطقة واتساع نشاطهم الحرفي الدي بلغ حد التصدير مما يعكس تحقيق الاكتفاء وبلوغ الفائض الذي كان يوجه الى التسويق[13].

6-أثر الحرفيين في تنمية اواصر التكافل الاجتماعي لدى مجتمعهم:

كونت الطائفة الحرفية وحدة اقتصادية واجتماعية تشكل مجتمعا قائما بداته داخل المجتمع الجزائري عامة حملت هذه الطوائف اسم الجماعات، تتكون من مجموعة رؤساء الحرف يحملون تسمية المعلم وكانت مجموعة المعلمين تحت رئاسة امين، تتمثل مهمة الامناء في الوساطة بين الجماعة الحرفية والسلطات العمومية، كما يساعدون الادارة في تسيير العمال وكان لهؤلاء الامناء ازدواجية المهام في مجال الشرطة والقضاء على الجماعات الحرفية. لقد انحصرت مهامهم على التنسيق مع المحتسب ومراقبة الموازين والمكاييل ونوعية المنتوجات التي تباع في الاسواق، من بين مهام الأمين أيضا الفصل في الخلافات تكريس مبدأ التكافل والتآزر الاجتماعي، بتقديم

يد العون والمساعدة للمعوزين وذوي الحاجة ذلك ان السلطة لا تتكفل باي عضو من اعضاء الجماعة[14].

شيخ البلد:

يعتبر موظفا مدنيا يشرف على النقابات المهنية والطوائف السكانية فهو يتصل بأمناء هده المهن ورؤساء هده الطوائف ليتعرف على مشاكلهم ويلبي حاجاتهم عند الضرورة كما يخضع تعيينه لأعلى سلطة ممثلة في الباشا او الداي ،كما يقع اختياره من العنصر المحلي ومن مهامه أيضا السهر على الجانب الأخلاقي فهو الذي يعاقب المستهترين ويوضع تحت اشرافه سجن خصص لهدا الغرض وقد امتدت صلاحياته الى المجال الاقتصادي حيث يكلف بمراقبة الحرف والصنائع وجباية الضرائب المستحقة على أصحاب الجماعات الحرفية مرة كل شهرين ،كما يفصل في قضايا الحرفيين من نزاعات وغيرها وكانت علاقته مباشرة با السلطة العليا اي الداي ودون وسيط[15]. كما عقدت اتفاقيات بين المشايخة والسلطة ،هدفها تكريس التكافل الاجتماعي متل الاتفاق الذي عقد في عهد الداي أحمد باشا وكان بحضورشيخ البلد "السيد المهدي" و أمين الأمناء "السيد مصطفى بن احمد بن محمد الشويهد" و هو الهيئة العليا المشرفة على الحياة الحرفية بالمدينة ،تمكنوا من خلال هدا الاتفاق من الزامية التكافل ضمن الجماعة الواحدة[16].

7-دور الحرفيين في إثراء ثقافة الغرب الجزائري:

شكلت الحرف جزءا من الثقافة الشعبية المتمثلة في تلك المعطيات التي تواكب الحرفة من معتقدات وحكايات وأغاني وتسميات والمميزات الخاصة للحرفي، تم اللغة الخاصة المحكية كل هده الامور هي ارت مهم يمتل حضارة شعب اد لا بد من تحليله وتدوينه وتسجيله لأنه يشكل القاعدة الاساسية لفهم ودعم الدراسات الأنثروبولوجية.

من بين مجموعة الأمثال المتداولة التي تتعلق با الحرف و الحرفيين:

المثل: "شكون عدوك من غير صاحب حرفتك"

الشرح: يوضح هدا المثل وراثة الصنعة في الاسرة الواحدة وحفظ اسرارها و تقنياتها.

المثل: "قلة الرزق نياحة او نياحة"

الشرح: اي القليل من الرزق يريح الفرد من عناء التعب و الجهد.

المثل: "ومدتي مال الجدين ويبقى مال اليدين."

الشرح: يوضح المثل افتخار المرأة بتعليم بناتها الحرف المتداولة بين العائلات.

المثل: "كل صبع بصنعة"

الشرح: التباهي باكتساب الحرفة من طرف النساء.

لا طالما اعتبرت الحرف التقليدية نتاجا حضاريا طيلة العديد من السنين لذلك التفاعل بين المجتمعات المحلية بما تحمله من رؤى وقيم حضارية،إذ تساهم كمكون أصيل في حفظ الذاكرةالجماعية، وقد ارتبطت الحرف ارتباطا وتيقا با المجتمع الريفي من خلال توفير المواد الاولية الاساسية لتشكيل المنتوج الحرفي واليد العاملة المتمثلة في أصحاب الصنعة وقد تم تلقين العديد من الحرف من خلال الروابط العائلية فيتم تداولها أبا عن جد،..

لقد زخرت عاصمة المغرب الاوسط تلمسان عبر تاريخها العريق بتعدد الفئات الحرفية الاجنبية من أبرزها فئة اليهود وفئة الاندلسيين، لدرجة أنهم احتكروا بعض الحرف الا انهم ساهموا في اتقانها وتنوعها، فلا يمكننا انكار الدور الاجتماعي الذي مارسه الحرفيين فالنشاط الحرفي لا طالما ورث للابناء كما لعب الامين دور مهم في حماية الحرفيين والسهر على اتقان العمل الحرفي ،فتبقى الحرف التقليدية من أهم نماذج التراث الحي الذي يستلزم الحفاظ عليه من خلال الممارسة التي تحافظ على احيائه وتواصله بين الأسلاف ويبقى جزء من الذاكرة الجماعية التي تميز هوية المجتمعات.

قائمة المراجع:

[1]- موسوعة الحرف التقليدية بمدينة القاهرة التاريخية ج1،مؤسسة اغا خان للخدمات التقافية ط1، 2004 ص11

[2]- فؤاد عبد الله العمر،مقدمة في تاريخ الاقتصاد الاسلامي وتطوره ،بحت رقم62 البنك الاسلامي للتنمية ،المعهد الاسلامي للبحوت والتدريب ص152

[3]- فؤاد عبد الله العمر ،المرجع نفسه،،ص153

[4]-ابراهيم عسل،التنمية في الاسلام مفاهيم مناهج وتطبيقات الموسوعة الجامعية للنشر والتوزيع، بيروت1996،ص86-87 .

[5]-نقادي سيدي محمد التصميم العمراني لمدينة تلمسان و دلالاته الاجتماعية رسالة ماجستير معهد الثقافة الشعبية جامعة تلمسان 1991ص70

[6]-الوزان الحسن بن محمد الفاسي وصف إفريقيا ترجمة محمد حجي ومحمد الاخضري دار الغرب الإسلامي لبنان ج 2ط 2- 1983-ص.24

[7]-الوزان الحسن المرجع نفسه.

[8]- ابن سعيد الغرناطي (نور الدين أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد) كتاب الجغرافيا تحقيق إسماعيل العربي ط2 ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1982ص.42

[9]-الشيخ ياقوت الحموي شهاب الدين ابي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي ج2 دار صادر، بيروت، ص44.

[10]- مختار حساني،تاريخ الدولة الزيانية،الاحوال الاقتصادية و التقافية،ج2،منشورات الحضارة 2009، ص88

[11]-المرجع نفسه ص89

[12]- عائشة غطاس،الحرف و الحرفيون بمدينة الجزائر1700-1830مقاربة اجتماعية اقتصادية، اطروحةدكتوراه دولة في التاريخ الحديث ج200،1-2001،الجزائر ص37.

[13]- مختار حساني،المرجع السابق، ص89

[14]-عائشة غطاس،المرجع السابق، ص42.

[15]-المرجع نفسه ص97-99.

[16]- المرجع نفسه ص219